مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (3)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (3) 2009

مقاربة للنظرة الحديثة إلى العالم

الدكتور أحمد أبو زايد *
معين رومية **

(تاريخ الإيداع 2 / 8 / 2009. قبل للنشر في 26 / 11 / 2009)

□ ملخّص □

يسعى البحث إلى بيان خصائص النظرة الحديثة إلى العالم، ويركز في هذا الإطار على نقطتين أساسيتين: الطبيعة والمنهج. لقد نُظر إلى الطبيعة بوصفها آلة يمكن فهمها بتفكيكها إلى أجزاء، وقد نجم هذا الموقف عن المنهج التحليلي الذي هيمن خلال الحقبة الحديثة. كما يبين البحث الانتقادات التي وجهها مفكرون عديدون إلى هذين الموقفين والأفكار التي طرحوها لتجاوزهما.

الكلمات المفتاحية: النظرة إلى العالم– النظرة الحديثة إلى العالم– النموذج الإرشادي– المناهجية– العبرمناهجية – الإيكولوجيا.

* أستاذ مساعد – قسم الفلسفة – كلية الآداب و العلوم الإنسانية – جامعة دمشق– دمشق–سورية.
** طالب دراسات عليا (دكتوراه) – قسم الفلسفة – كلية الآداب و العلوم الإنسانية – جامعة دمشق– دمشق–سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (3)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (3) 2009

An Approach to Modern Worldview

Dr. Ahmad Abu-Zayd*
Moeen Roumeih**

(Received 2 / 8 / 2009. Accepted 26 / 11 / 2009)

□ ABSTRACT □

This research explores the characteristics of modern worldview and focuses on two points: Nature and Method. Nature is seen as a machine that can be understood by reduction into parts. This attitude results from the analytical method that has dominated the modern era. Also, this study highlights criticisms of these two attitudes made by thinkers expressing alternative positions.

Keywords: worldview, modern worldview, paradigm, disciplinarity, trans-disciplinarity, ecology.

***Associate Professor, Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, University of Damascus, Damascus, Syria.**
****Postgraduate Student, Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, University of Damascus, Damascus, Syria.**

مقدمة:

يمثل مفهوم النظرة إلى العالم أداة نظرية خصبة تتيح فهم الاتجاهات الفكرية الأساسية في حقبة أو عصر محدد. وقد شكلت النظرة الحديثة إلى العالم الإطار العام للأفكار والقيم التي سادت الحقبة الحديثة وأثرت في جوانب الحياة المختلفة.

أهمية البحث وأهدافه:

تنبع أهمية هذا البحث من ضرورة فهم النظرة إلى العالم التي سادت في الحقبة الحديثة، لأن ذلك يساعد في فهم الاتجاهات والتغيرات الفكرية التي تحدث حالياً. ونهدف من خلال هذا البحث إلى بيان خصائص النظرة الحديثة إلى العالم والانتقادات التي تتعرض لها، خاصة فيما يتعلق بمسألتي المنهج والموقف من الطبيعة.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على عرض الأفكار ومقابلتها وبيان التغيرات التي لحقت بها من دون الالتزام بمنهج وحيد لمفكر وحيد، بل استفاد من آراء مفكرين يمثلون اتجاهات مختلفة .

1- مفهوم النظرة إلى العالم:

يستعير هذا المفهوم حاسة البصر لتوضيح معناه، فالعين ترى ضمن ساحة أو حقل أو مجال للرؤية. أي أن العين تستطيع مشاهدة ما يقع ضمن هذا الحقل أو المجال فقط، أما خارجه فليس بمتناولها. إذا ما انتقلنا من البصر إلى الفكر، فإن النظرة إلى العالم تشير إلى حقل التفكير أو مجاله الذي يمثل الساحة التي يعمل فيها الفكر.

تكون النظرة إلى العالم ، كما يرى ديلتاي Dilthey، منظوراً شاملاً للحياة يضم في داخله ما نعرفه عن العالم ، وكيف نقيمه انفعالياً، وكيف نستجيب له إرادياً[1]. مما يعني أن المفهوم يشمل عناصر تجربتنا المعرفية والقيمية وما يرافقها من ممارسات ومواقف تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين سواء أكانوا آخرين أعضاء في المجتمع البشري أو آخرين من غير البشر. ففي كل مرحلة ثقافية أو حضارية، كما يرى هسرل Husserl:

تفترض النظرة إلى العالم مقدماً كل العلوم الجزئية بوصفها كنوزاً وثروات من الحقيقة الموضوعية، وهي بقدر ما تستهدف الوفاء على قدر الإمكان بمطلبنا في الوصول إلى معرفة كاملة وموحدة شاملة ومدركة كل شيء – تنظر إلى العلوم الجزئية كلها على أنها أساسها الذي تقوم عليه.[2]

ومن المتفق عليه بين المفكرين عامة أن ثمة سمات مشتركة للنظرات إلى العالم التي أبدعتها البشرية وهذه السمات تتلخص بما يأتي:

- هناك افتراضات عامة مسبقة(مصادرات أو مسلّمات) عن الواقع بما في ذلك مكانة الإنسان في الطبيعة.
- هناك قواعد عامة متفق عليها يمارسها و يقبل بها الناس في مقاربة المسائل والمشكلات التي تواجههم.
- أولئك الذين يشتركون في نظرة إلى العالم يشتركون أيضاً في تعريف افتراضات و أهداف مجتمعهم.

---

[1]- AUDI, R.(ed). *The Cambridge Dictionary of Philosophy*, Cambridge University Press, Cambridge, 1998, entry: Dilthey.

[2] - هسرل، إدموند. *الفلسفة علما دقيقا*، ت: محمود رجب، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، 2002، ص85.

- الثقة والإيمان بأن حلول المشكلات توجد في سياق الافتراضات المسلّم بها.
- في سياق نظرة ما إلى العالم، تُقدَّم الحجج و تتأسس المناظرات والجدالات بناء على المعطيات و النظريات التي يقدمها المفكرون أو الخبراء في هذه النظرة – قد يكون هؤلاء فلاسفة أو علماء أو رجال دين ...الخ.
- تتسم النظرة إلى العالم في حقبة معينة بأنها تهيمن على ميدان الفكر و العمل عامة، و غالباً ما يتم نبذ من يحاولون نقد أو تفحص أسس هذه النظرة.[3]

وبهذا المعنى يقترب مفهوم النظرة إلى العالم من مفهوم النموذج الإرشادي الاجتماعي الذي يعّرف بأنه:

مجموعة متماسكة من المفاهيم و القيم والاعتقادات و العادات و المعايير التي تشكل إطاراً مرجعياً لجماعة من الناس ، أمة مثلا، في حقبة زمنية محددة. أي أنه صورة ذهنية للواقع الاجتماعي ترشد التوقعات والأهداف في المجتمع وتوجهها خلال حقبة زمنية محددة.[4]

يعد مفهوم النموذج الإرشادي الاجتماعي تعميماً لمفهوم النموذج الإرشادي العلمي الذي قدّمه توماس كون Thomas khun ويعرّف كما يأتي:

مجموعة متماسكة من المكتسبات – المفاهيم و القيم و التقنيات – تتشاركها جماعة علمية وتستخدمها كي تعرّف المشكلات وحلولها المشروعة.تحدث التغيرات في النماذج الإرشادية في انقطاعات مفاجئة غير متصلة ندعوها نقلات أنموذجية.[5]

وعلى هذا الأساس نتحدث عن النظرة الأسطورية إلى العالم وعن النظرة الدينية (المسيحية أو الإسلامية أو الوثنية ...) إلى العالم أو، بحسب التحقيب الزمني، عن نظرة القرون الوسطى إلى العالم، وكذلك عن النظرة الحديثة إلى العالم.

النتائج والمناقشة:

2- النظرة الحديثة إلى العالم

مهّد عصر النهضة الأوروبية السبيل للخروج من نظرة العصور الوسطى و من ثم إلى بروز النظرة الحديثة إلى العالم، وقد بلغ العلم ومنهجه التجريبي شأواً رئيساً في تبلور النظرة الحديثة إلى العالم التي هيمنت على مجالات الفكر المختلفة. ويمكن أن نعدد السمات الرئيسة للنموذج الإرشادي العلمي الكلاسيكي الذي تتضمنه هذه النظرة كما يأتي:

- في أي نظام معقد يمكن فهم الكلّ عن طريق فهم الأجزاء المكونة له. هذا يعني أن ما يتمتع به الكل من خصائص ناجم عن خصائص أجزائه. أو بعبارة أخرى : إن الكل هو مجموع أجزائه. و من ثم يجب المضي في التحليل إلى أجزاء أصغر فأصغر حتى نصل إلى عناصر أساسية أو لبنات بناء أولية نصوغ أو نكتشف قوانين ومبادئ ارتباطها.
- التفكير بحسب البنية: ثمة بنى أساسية في الكون وقوى وآليات (ميكانيزمات) تتفاعل من خلال هذه البنى، مما يؤدي إلى ظهور السيرورات – العمليات – المختلفة في الكون.

[3]- Devall , B; Sessions, George, *Deep Ecology*. Gibbs Smith Publisher, Salt Lake City, 1985, p. 42.
[4] - Capra, F. *The Web of Life*. HarperCollins Publishers Ltd, New York, 1996, p. 17.
[5]- Ibid. p. 18.

- الموضوعية: يمكننا فهم ظواهر العالم الخارجي بدقة تامة وبشكل مستقل عن المراقب البشري و عن عملية المعرفة وأن طرائق البحث العلمي تضمن هذا الأمر.
- المعرفة تشبه البناء إذ ثمة قوانين أساسية أو قواعد تنهض عليها وتنتظم في مستويات معرفية متدرجة.
- المعرفة العلمية يقينية و يمكن من جهة المبدأ التنبؤ بالأحداث والتحكم فيها تحكماً تاماً.
- موقف الهيمنة و السيطرة على الطبيعة بوساطة المعرفة العلمية.[6]

لكنْ، ثمة في أساس هذا النموذج الإرشادي موقف فلسفي شمل المنهج والطبيعة، وقد صدر في الأصل عن ديكارت Descartes الذي قدم منهج الفكر التحليلي الذي يعتمد على تفكيك الظواهر المعقدة إلى أجزاء بغية فهم سلوك الكلّ من خصائص أجزائه، فقد رأى في القاعدة الثانية من قواعد المنهج التي ذكرها في كتابه مقالة الطريقة وجوب:

أن أقسِّم كل واحدة من المعضلات التي أبحثها إلى عدد من الأجزاء الممكنة واللازمة لحلها على أحسن وجه.[7]

كما أقام ديكارت نظرته إلى الطبيعة على التقسيم الأساسي بين عالمين/ جوهرين منفصلين مستقلين – عالم العقل وعالم المادة. وقد رأى ديكارت أن الطبيعة (بل الكون المادي بوصفه كلاً) يشبه الآلة التي يمكن فهمها فهما تاماً بتحليلها إلى أجزائها الأصغر. وأصبح مفهوم الآلة الاستعارة المسيطرة على الحقبة الحديثة، وقد عززته الاكتشافات و الابتكارات المتتالية في حقول الفيزياء و الفلك والرياضيات التي عرفت بالثورة العلمية.[8]

3- الطبيعة في النظرة الحديثة إلى العالم

ليس ثمة مفهوم واحد عن الطبيعة جرى تداوله عبر الزمان والمكان فقد عدّل الإنسان نظرته إلى الطبيعة عبر العصور. لكن الثابت أن رؤية الإنسان للطبيعة في عصر ما تنسجم مع النظرة إلى العالم في ذلك العصر تبعاً لشكل التنظيم الاجتماعي و درجة تطور المعرفة العلمية والتقانات المستخدمة ...الخ. ولذلك تعددت نظرات الإنسان إلى الطبيعة بتعدد النظرات إلى العالم التي مرّت في تاريخ البشر و بالتوافق معها. مثلا، لقد تزامنت الطبيعة السحرية مع النظرة السحرية أو الأسطورية إلى العالم إذ يرى الفكر السحري أن الطبيعة عضوية حية، ويرى في كل شيء يحدث في الطبيعة إشارة أو رمزاً أو أثراً لمعنى ما.

الطبيعة – الآلة:

تزامن مفهوم الطبيعة – الآلة مع المذهب الآلي (الميكانيكي) في الحقبة الحديثة أي القرون 17- 18 – 19. يرى المذهب الآلي أن الطبيعة تشبه الآلة إذ يكفي تفكيكها إلى أجزائها كي نمتلك معرفتها والقدرة على السيطرة والتحكم بها وتوجيهها نحو ما نريد من غايات. والافتراض الأساسي في هذه النظرة هو انفصال الإنسان عن الطبيعة المادية حوله وقدرته على معرفتها والظفر بها بوساطة الطرائق العلمية .[9]

---

[6] - كابرا، فريتجوف. *الطاوية و الفيزياء الحديثة*. ت: حنا عبود، دار طلاس للدراسات و النشر، دمشق، 1998، ص 295-300 .

[7] - ديكارت، رينيه. *مقالة الطريقة*. ت: جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، 1970، ص 104.

[8] - Capra, op. cit., pp. 20-21.

[9] - Capra, op. cit., p. 27.

لقد انسجمت هذه النظرة مع موقف المردودية التكنولوجية أي استغلال موارد الطبيعة بأكبر قدر ممكن، وهذا الموقف بدوره توافق مع التنظيم الرأسمالي للحضارة الحديثة (ثم المعاصرة)، والذي من مقوماته الرئيسة النزعة الاستهلاكية التي تغذي بأثر راجع موقف السيطرة و المردودية، بحيث يتحقق في النهاية هدف المشروع الرأسمالي في الربح .

كان موت الطبيعة هو المآل المنطقي لهذه النظرة إلى جانب ضروب الموت الأخرى التي جلبتها النظرة الحديثة إلى العالم– موت الله كما قال نيتشه و موت الإنسان كما زعم البنيويون و موت التاريخ (أو نهاية التاريخ) كما ينظّر لها بعض المفكرين الأمريكيين حالياً. لكن في الحقيقة أن الذي مات هو نظرة معينة إلى الطبيعة هي النظرة الحديثة و ثمة اليوم تيارات تدعو إلى نظرة جديدة إلى الطبيعة و إلى علاقة الإنسان بها، أقصد بذلك التيارات التي نضعها تحت اسم الفكر الإيكولوجي(الفكر البيئي) و الذي نشأ بوصفه ردّ فعل على ظهور مشكلات البيئة الطبيعية وتفاقمها إلى الحد الذي بات يهدد سلامة كوكب الأرض و بقاء أشكال الحياة المتنوعة بما فيها النوع البشري.

3– المسألة المنهجية في النظرة الحديثة إلى العالم

قاد المنهج التحليلي الذي نادى به ديكارت إلى استقلال المناهج (الفروع) العلمية، إذ جرى في العلوم الطبيعية تفكيك العالم ذهنياً إلى أجزاء يختص كل منهج (كل فرع علمي) بدراسة جزء منه. وقد استمر تقسيم هذه الأجزاء إلى أجزاء أصغر أصبحت موضوعات لفروع علمية جديدة . على هذا النحو تطورت العلوم الطبيعية المختلفة – الفيزياء و الكيمياء و البيولوجيا وعلم الفلك ...الخ. وكان من نتيجة ذلك أن تراكم لدى الإنسان معلومات هائلة عن موضوعات العالم الخارجي . وقد سارت علوم الإنسان و المجتمع في ركاب العلوم الطبيعية فظهرت ضمنها ميادين متعددة .

المناهجية disciplinarity

ينظر إلى المناهجية على أنها ميل المعرفة العلمية إلى التخصص، بل التخصص الفائق عبر المضي في تقسيم الموضوعات إلى ميادين أضيق فأضيق . وكلما ضاق ميدان البحث تراكمت لدينا معلومات أكثر، مما يجعلنا نخسر الإحاطة بالموضوع بوصفه كلاًّ، وقد أدى هذا الأمر إلى شرخ بين واقع الممارسة العلمية وبين فكرة العلم بوصفه الشوط الأعلى للمعرفة البشرية.[10]

نتج عن الذي ذكرناه ردّات فعلٍ عبرت عن نفسها بتقارب عدد من المناهج والتقاطع فيما بينها، وبذلك تبلور ما نسميه تعددية المناهج و البينمناهجية محاولة لاستدراك ثغرات المناهجية.

[10] – نيكولسكو، بسراب. *العبرمناهجية*. ت: ديمتري أفييرينوس، دار مكتبة إيزيس، دمشق، 2000، ص 51– 52.

تعددية المناهج plural-disciplinarity

تعني تعددية المناهج اشتراك عدة مناهج في دراسة موضوع واحد لا يستطيع أي منهج منها على حدة أن يحيط بكل مظاهره وتعقيداته عندما يستخدم التقنيات و المفاهيم التي بحوزته. وبذلك نخرج بفهم أغنى و أشمل للموضوع .[11]

مثلا، في دراسة عملية التنفس عند الإنسان تدرس البيولوجيا بفروعها المختلفة دور التنفس في البقاء الحيوي للفرد وتستعين بالفيزياء لمعرفة دور العضلات المختلفة في الصدر والحلق في إحداث آلية الشهيق والزفير. وتستعين بالكيمياء لمعرفة التفاعلات التي تحدث في الدم في أثناء التنفس (تفاعل الأكسدة الذي يؤدي إلى إطلاق الطاقة الضرورية لعمل الخلايا). وقد تستعين بنظرية التطور لمعرفة هل حدث تبدل في أعضاء التنفس عبر التاريخ التطوري للإنسان ...الخ. وبذلك نصبح على معرفة أشمل بالموضوع الذي ندرسه.

البينمناهجية inter-disciplinarity

تعني البينمناهجية نقل الطرائق البحثية من منهج إلى آخر، وذلك لخدمة هدف مشترك مثل المصادقة على نظرية معينة أو تأويل معطيات أو أرصاد جديدة . وللبينمناهجية ثلاث درجات:

* **درجة تطبيق** : مثلا، إن نقل طرائق الفيزياء أو الكيمياء النووية إلى مجال الطب قد يخدم في علاج مرض ما كالسرطان.

* **درجة نظرية:** مثلا، يؤدي نقل طرائق المنطق الصوري (الاستدلالات بأنواعها المختلفة) إلى مجال الحقوق إلى قيام تحليلات مهمة في نظرية الحق.

* **درجة توليد مناهج جديدة:** مثلا، إن نقل طرائق الرياضيات إلى الفيزياء أدى إلى ظهور فرع علمي يسمى الفيزياء الرياضية،وكذلك أدى نقل طرائق الكيمياء إلى البيولوجيا إلى ظهور البيوكيمياء (الكيمياء الحيوية).[12]

لكنّ كلاً من تعددية المناهج و البينمناهجية تخدم في النهاية الفكر التحليلي فهما تبيّنان الروابط الضرورية بين المناهج و تغنيان المعرفة و تسهمان في تكاملها لكنهما لا تعدلان موقف الإنسان أمام البحث وأمام المعرفة تعديلاً جذرياً. فهما في النهاية يشتركان في النظرة إلى العالم ذاتها القائمة على الفصل بين الذات العارفة والموضوع، هذه النظرة التي تهيمن على الفكر الحديث منذ لحظة ديكارت التأسيسية.

4- النقد المنهجي النظرة الحديثة إلى العالم

تدعو العبرمناهجية trans-disciplinarity إلى نظرة جديدة إلى العالم يكون في نواتها مقاربة منهجية جديدة تتجاوز ما تعده العيب الأساسي في النظرة الحديثة إلى العالم والمتمثل في القسمة الثنائية الديكارتية ومنهجها التحليلي. ولذلك فقد تبلورت العبرمناهجية بوصفها حاجة إلى خرق الحدود بين الميادين المعرفية، و من ثم الحدود بين المناهج التي تستخدمها، ولتجاوز تعددية المناهج والبينمناهجية، وهي تقدم طرائقية بحث متكاملة مكونة من ثلاثة أركان هي:

[11] – المرجع نفسه، ص 54.

[12] – نيكولسكو، مرجع سابق، ص 55.

- مستويات الواقع
- منطق الثالث المشمول
- التعقيد

يقصد بمستوى الواقع جملة من المنظومات ينتظمها عدد من القوانين العامة، ويكون ثمة مستويان للواقع مختلفين عندما يحصل لدى المرور من أحدهما إلى الآخر انقطاع في القوانين وفي التصورات الأساسية التي تنطبق عليه (مثلا :السببية في الفيزياء الماكروية–أي الكلاسيكية – لا يمكن تطبيقها على الفيزياء الكوانتية). لكن هذه اللاتصالية بين مستويات الواقع لا تحول دونها والوجود معاً. على سبيل المثال، لأجسامنا في الوقت نفسه بنيان ماكروي (كبري)و بنيان كوانتي(صغري – أي ما دون ذري). إذن الواقع مكون من مستويات – المستوى الماكروي و المستوى الكوانتي و المستوى البيولوجي والمستوى النفسي و المستوى الاجتماعي والمستوى الايكولوجي...الخ.[13]

إن عقيدة وجود مستوى واحد فقط للواقع تنسجم مع المنطق الكلاسيكي المؤسس على مبادئ الهوية(أ هو أ) وعدم التناقض (أ ليس لا–أ) والثالث المرفوع (لا يوجد حد ثالث هو نفسه أ و لا– أ) . لكننا إذا قبلنا وحسب بهذا المنطق الذي ساد ألفي عام وما يزال، لن نستطيع أن نحل أزواج المتناقضات التي كشفتها الفيزياء الكوانتية ، إذ لا يمكن في الوقت نفسه تأكيد صحة شيء (موجة أ) وضده (جسيم لا–أ) . قادت هذه المعضلة كثيرٌ من المفكرين إلى محاولة طرح منطق جديد ينسجم مع هذه الاكتشافات ، ويعود الفضل تاريخيا إلى ستيفان لوباسكو في طرح منطق الثالث المشمول باعتباره يثبت ثلاث قيم (أ، لا–أ، ث)، وفي بيان أن هذا المنطق حقيقي و قابل للصياغة الصورية .إن فهم مسلمة الثالث المشمول (البديلة عن الثالث المرفوع) يتضح تماماً مع مفهوم مستويات الواقع . يمكن أن نمثل للحدود الثلاثة للمنطق الجديد بمثلث يتوضع أحد رؤوسه على مستوى، بينما يتوضع الرأسان الآخران على مستوى آخر للواقع . عندما نكتفي بمستوى واحد تبدو الظواهر متناقضة (مثلا : الموجة أ والجسيم لا–أ) لكن ديناميكية الحالة (ث) تفعل على مستوى آخر للواقع حيث ما يبدو مفرّقا(موجة أو جسيم) هو في حقيقته موحد ومشمول في حد ثالث (كوانتوم) ، وما كان يبدو متناقضاً يدرك الآن بوصفه غير متناقض. فالأمر لا يعني إلغاء منطق الثالث المرفوع إنما إظهار أن مجال صلاحيته يقتصر على الحالات البسيطة وأنه يناسب فقط الفكر التحليلي الذي يعمل وفق منطق الاستبعاد أو التصنيف.[14]

إذن منطق الثالث المشمول هو منطق للتعقيد – تعقيد الواقع بمستوياته المتعددة وارتباطاتها . وهو كذلك بامتياز بقدر ما يسمح باجتياز المجالات المختلفة للمعرفة اجتيازاً متسقاً. يغتذي التعقيد من تفجر البحث المناهجي ويتجلى في كل مكان من العلوم الطبيعية إلى العلوم الإنسانية ، ويبدو تطور التعقيد في الفنون مذهلا ، أما في المجال الاجتماعي والسياسي فنجد إخفاق المنطق القديم واضحاً عندما يعمل على نحو استبعادي : الخير أو الشر، اليمين أو اليسار، الرجال أو النساء، الأغنياء أو الفقراء .....الخ.[15]

[13] – المرجع نفسه، ص 30.

[14] – نيكولسكو، مرجع سابق، ص36 – 39.

[15] – المرجع نفسه، ص 41.

5- النقد البيئي للنظرة الحديثة إلى العالم:

ترجع الإيكولوجيا(علم البيئة) ecology في أصلها اللغوي إلى اللغة الإغريقية و تعني منزل الأسرة، وقد انتقلت الدلالة لتشير إلى منزلنا- الأرض نحن البشر .وهي بذلك تعني دراسة العلاقات التي تربط أعضاء منزلنا- الأرض، أي الكائنات الحية المختلفة و البيئات المادية المتنوعة التي تحيط بها. ثم أخذ علم الإيكولوجيا تعريفه النهائي بوصفه العلم الذي يدرس العلاقات التبادلية بين الكائن الحي و بيئته المحيطة.[16]

يبدو من خلال تعريف الإيكولوجيا تركيزها على العلاقات بين الكائنات الحية، وبضمنها الإنسان، والبيئة، مما يكون موقفاً مغايراً للنظرة الديكارتية القائلة بالانفصال بين الإنسان والطبيعة. ولذلك تركز نقد الإيكولوجيا للنظرة الحديثة إلى العالم على الموقف من الطبيعة فهي تقدم نظرة بديلة تشكل قطيعة مع مفهوم الطبيعة – الآلة. ويمكن تحديد خصائص أربع للنظرة البيئية إلى الطبيعة:

تتمثل الخاصية الأولى بأن المنظومات الطبيعية كليات ذات خصائص غير قابلة للاختزال. فمن جهة كونها كليات فهي تختلف عن أكوام الأشياء التي لا يجمع بينها سوى اشتراكها في حيز مكاني ممتد. ويحدد الاعتماد المتبادل بين أجزائها البنية العلائقية التي تجعل الأجزاء تنتظم فيما بينها وفق نماذج معينة تجعل خصائصها تتبع بنية العلاقات بين الأجزاء وليست محض مجموع حسابي لخصائص الأجزاء.[17]

وبالارتباط مع البنية العلائقية والاعتماد المتبادل، فإن الخاصية الثانية للمنظومات الطبيعية تتمثل في أنها تستطيع أن تحافظ على نفسها في بيئة متغيرة. وبتعبير آخر، تستطيع أن تحفظ وتصون العلاقات بين أجزائها بما يؤمن استمرارها بوصفها كلية ثابتة نسبياً عبر الزمن.[18]

ويعد الخلق الذاتي الخاصية الثالثة التي تتسم بها المنظومات الطبيعية في سياق استجابتها للخاصية نفسها لدى المنظومات الأخرى. يحدث الخلق الذاتي عندما لا تستطيع المنظومة موازنة التأثيرات والضغوط عليها من المنظومات الأخرى اعتماداً على البنية العلائقية الموجودة.[19]

الخاصية الرابعة فحواها أن المنظومات الطبيعية أوساط رابطة في إطار هرمية الطبيعة. وهذا يعني أن التطور، بما هو تشكيل للعلاقات، أي تشكيل للمنظومات، ينحو باتجاه تراكب المنظومات في بنية متعددة المستويات ومستمرة تتخلل مجالات ما تحت العضوي (مستوى المادة) والعضوي (مستوى الحياة) وما فوق العضوي (المستوى الاجتماعي). و يَؤُول التنظيم إلى أن يشبه هرماً يكون في أسفله كثير من المنظومات البسيطة نسبياً، وفي القمة المنظومات المعقدة، و بينهما تأخذ المنظومات الطبيعية أوضاعاً متوسطة تربط المستويات الأدنى والأعلى منها. إنها كليات نسبة إلى أجزائها، وأجزاء نسبة إلى الكليات الأعلى منها.[20]

الخاتمة:

يمكن القول إن النظرة الحديثة إلى العالم تمثل مرحلة في التطور الفكري كان لها إنجازاتها وإخفاقاتها. فمن جهة إنجازاتها كان للمنهج التحليلي دور كبير في التطور العلمي وازدياد المعرفة البشرية بالطبيعة، ومن ثم الوصول إلى درجة متقدمة من تسخيرها والتحكم بها لخدمة الإنسان. لكنّ جوانب سلبية رافقت هذه الإنجازات

[16] - KUMAR, H.D. *Modern Concepts of Ecology*. Vikas Publisher House, New Delhi, 1981- pp. 1-2.
[17]- Laszlo, E. *The Systems View of The World*. Hampton Press Inc., Broadway, 2002, pp. 25-26.
[18] - Ibid., p. 30.
[19] - Ibid., p. 39.
[20] - Laszlo, op cit., p. 54.

وتمثلت في أن المنهج التحليلي أفضى إلى ترسيخ قسمة ثنائية بين الذات والموضوع اتخذت شكل انفصال بين الإنسان والطبيعة وإهمال العلاقات التي تربط بينهما والتي تعود في النهاية إلى أن الإنسان كائن حي يتكل في استمراره وبقائه على الطبيعة مثله مثل الكائنات الحية الأخرى.

نستنتج مما سبق أن النظرة الحديثة إلى العالم، خصوصاً على صعيدي المنهج والنظرة إلى الطبيعة، ربما يكون قد فات أوانها وثمة حاجة إلى طرح أفكار وقيم جديدة تسهم في تشكيل نظرة جديدة إلى العالم تتوافق مع التطورات والقضايا المستجدة . وهذا يؤكد أيضاً وجهة نظر توماس كون فيما يخص التغير الذي يلحق بالنماذج الإرشادية التي تكون سائدة في النظرات إلى العالم. ولعل بإمكاننا القول إن ما سبق يدل على تاريخية النظرة الحديثة إلى العالم وتاريخية الحضارة الحديثة التي نشأت في إطارها.

المراجع:

1. AUDI, R.(ed). *The Cambridge Dictionary of Philosophy*, Cambridge University Press, Cambridge, 1998.
2. CAPRA, F. *The Web of Life*. HarperCollins Publishers Ltd, New York, 1996.
3. DEVALL , B; SESSIONS, GEORGE. *Deep Ecology*. Gibbs Smith Publisher, Salt Lake City, 1985.
4. KUMAR, H.D. *Modern Concepts of Ecology*. Vikas Publisher House, New Delhi, 1981.
5. LASZLO, E. *The Systems View of The World*. Hampton Press Inc., Broadway, 2002.
6. ديكارت، رينيه. *مقالة الطريقة*. ت: جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، 1970.
7. كابرا، فريتجوف. *الطاوية و الفيزياء الحديثة*. ت: حنا عبود، دار طلاس للدراسات و النشر، دمشق، 1998.
8. نيكولسكو، بسراب. *العبرمناهجية*. ت: ديمتري أفييرينوس، دار مكتبة إيزيس، دمشق، 2000.
9. هسرل، إدموند. *الفلسفة علما دقيقا*، ت: محمود رجب، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، 2002.